القصة الخامسة ـ في الجانب الآخر من هذا العالم

مها الغريب

في زمن قل في العطاء ، في زمن كثرت فيه دموع و أيدي السائلين المحتاجين طالبين العون ولو بكسرة من رغيف خبز يابس على الأرصفة المهترئة والأزقة المظلمة ،منهم من يخجل من مد يده للناس وطلب قرشين أو ثلاثة قروش، يمشي- متوسلاً خلف الناس علهم يشترون من بضاعته البسيطة أوليتصدقوا عليه! كعادتي أنهي محاضراتي مبكراً ثم أتجه إلى تلك الكافيتريا لأسكت عصافير بطني بعد دروس شاقة ، يأتي ذلك الرجل العجوز بعمر جدي وهو يعتمر قبعة مهترئة وسترة لم تكن على قياسه عريضة الأكتاف طويلة البدن والأكمام لطالما كسر قلبي بمنظره ،لم يبق مكان صغير على وجهه إلا وقد غزته التجاعيد يلملم بقايا الطعام بعيون دامعة ويدين خشنتين قام الزمن البائس بتعريتهما من النعومة والراحة ، كان يبدو عليه الخجل لكنه ربما يردد في نفسه "الزمان أجبرني" أحيانا أشاهده وهو يقوم بتقليم حدائق الجامعة، لكنه كان عملاً شاقاً بالنسبة لرجل مثله! في كل مرة أفتح فيها حقيبتي فلا أجد فيها إلا قروشاً قليلة وأجرة الباص الذي سيقلني لمنطقتي التي لا أصلها يومياً إلا بشق الأنفس، لا أكذب عليكم، أحياناً يمتلئ جيبي بالنقود، ولكن ما إن تلامس أناملي النقود وتستنشق رائحتها فسرعان ما يصيبني الجشع ويأتي ببالي ألف حساب وخطة وما

ستجلبه لي من سعادة وراحة ! سأشتري هدية باهضة الثمن لصديقتي و ربما أشتري ذلك الحذاء أو تلك الحقيبة فأغيظ زميلاتي ..

في يوم ما كنت عائدة للمنزل في يومها كان الجو ممطراً ، السماء رمادية والناس تجري بسرعة كل شخص يضع مظلته فوق رأسه خشية أن تبلله الأمطار ومن لم يحظ بالمظلة استعان بكتبه لتقيه القليل من قطرات المطر، ما أذاب قلبي في هذا البرد و ما جعلني أتوقف وسط الطريق رغم أفواج الطلاب المسرعة حتى ضربني شخص ما بكتفه " انتبهي!! " لكنني لم أنتبه، فكل حواسي حينها كانت باتجاه ذلك العجوز الذي يلتفت يميناً ويساراً عل الباص ذو الأجرة الرخيصة يأتي فيقله مشيت باتجاهه مسرعة لكن الناس بدأت تستقل الباص، أحدهم يدفع الآخر من سيصعد ومن سيحصل على مقعد في الجامعة، يتظاهرون بالأناقة والثقافة، وها أنا والرجل العجوز نصعد الباص، لكننا بقينا واقفين على أقدامنا دون أن يتكرم أحدهم فيقول للشيخ المسن " تفضل بالجلوس يا عم" كان كل ثانية يتفحص أكياس الطعام التي جلبها معه وكأنه قد أشترى الخبز الساخن ،شريحة لحم كبيرة و الفواكه الطازجة بشتى أنواعها ،أظن أن عشاءه سيكون فخماً . كانت أمي دائماً توصينا وتحثنا بالإحسان على الآخرين حتى ولو بكلمة طيبة ، كانت تقول إن الدنيا زائلة و ربما فعل صغير من الخير قد يفتح لنا ألف باب، فإن أعطيت زاد عطاء الدنيا وزاد مدرارها علينا .. عدت للمنزل وأخرجت ملابس أبي التي لايرتديها وشرحت لأمي كم هي مؤلمة حالة ذلك

العجوز ، أخذت ثلاث أو أربع قطع من الملابس ثم أخذت معي علبة من مربى المشمش الذي تصنعه أمي كل عام.

كم كنت سعيدة! وتخيلت كيف ستكون سعادة ذلك الرجل ربما ستكون أكبر من سعادتي بلاشك، لكن للأسف الرجل العجوز لم يأتي.

مرت الأيام وأنا أنتظره، لكنه لم يأتي .

سألت العامل الذي يجمع بقايا الطعام من على الموائد، لكنه أجابني " لقد طرده المدير من هنا إنه يلملم بقايا الطعام كل يوم كقطٍ شارد، لقد بدأ الطلاب يقرفون من شكله " مرت سنوات الدراسة ببطء، ومن يومها لم أرى ذلك العجوز، كم ندمت لأنني تأخرت في مد يد العون له، حقاً أنا أعتذر يا عمي، أعتذر وبندم ! مرت السنوات كنت أمشي في شوارع إحدى المدن فإذا بامرأة عجوز تجلس على أحد المقاعد المنتشرة على طول الطريق، كانت عجوزا طاعنة في العمر تطلب العون، كان الكل يمر من أمامها دون أن يساعدها ولو بقرش واحد ، فتحت حقيبتي وساعدتها بما تيسر لي من نقود، كم كانت سعيدة وأنا زادت سعادتي أكثر، قالت لي رفيقتي ":

إنهم يكذبون، لماذا تصدقينهم" مشيت أمامها مرتاحة الضمير وقلت في نفسي " لقد كان علي دين وها أنا قد سددتُ ديني " في جوف هذا العالم جانب حزين ومظلم ليس باستطاعته رؤية النور ولا باستطاعتنا رؤية محتواه، لأننا ببساطة لا نفكر بمعرفة خباياه، بل حتى لم نذق تلك الحاجة التي تعتمر قلوبهم، لكنني متأكدة بأنه عالم كبير

وحزين يوجد فيه محيط من الدموع ، وأطنان من الأمنيات التي يقيدها الفقر، رفوف سطرت عليها حكاية ألف فقير و بطون جائعة وظهور أشقاها التعب.

في هذه الدنيا ما أعظم أقوالنا وما أقل عطايانا وأفعالنا ، نقف أمام الفقير فنبحث ما أن كان في جيبنا فئات نقدية لاتكفي حتى لشراء قطعة حلوى صغيرة فنقدمها لهم ! فلنعلم أن الصدقة وتقديم المعروف في هذه الدنيا ما هي إلا حصالة نجمع فيها الخير ليعاد إلينا في يومٍ ما .

*****

القصة السادسة ـ نور

صفاء زهرة